مقابلة أدبية مع :

خليل حاوي

تصفية العالم من رموز الانحطاط

حوار اجراه :

ماجد السامرائي

يعطي الشاعر الكثير خلال مساره الشعري .. وعند نقطة ، أو مرحلة في هذا المسار ، يقف بنا ، أو نقف به عند جملة قضايا ، بعضها كان شعره قد طرحها علينا ، وبعضها يتصل بموقفه بشكل عام .. فنناقش معه هذه القضايا ، ونستجلي الموقف ، أو نستوضحه . بينما يجيء البعض الآخر من هذه القضايا عبارة عن عملية ربط وتأكيد للعلاقة بين « الشعر » و « الموقف » .

ومع ايماني الكلي بأن الشاعر غير ملزم بتفسير تجاربه (وينبغي أن يفعل ذلك) ، فانني أرى ان الحوار معه في قضايا شعره ذاتها ، وفي قضايا الشعر ، بشكل عام ، تجعلنا أقرب الى الارض التي انطلق منها ، والافق الذي تعلقت به رؤياه .

ينبغي أن نفعل هذا مع « علامات الزمن الشعري » .. ومع كل علامات الزمن الابداعي ، من منطلق الرغبة في التوصل الى رؤية متكاملة ، شاملة للابداع في اطاره ، كابداع ، وفي اطار الزمن الذي أبدع فيه .

وخليل حاوي علامة كبيرة في شعرنا الجديد :

كبيرة بما أعطت ، وبالاسهام الذي كان لها في حركة الشعر العربي الجديد ، وبالطريق الشعري الذي اختطه لنفسه ليكون شاعرا ذا رؤية حضارية ، منطلقها الثورة على جميع ترسبات التخلف والرجعية في الذات العربية المعاصرة .. وهدفها أن تخرج بالعصر العربي الجديد الى شمس الحضارة .. منطلقا ، في ذلك كله ، من خصائص حية في تاريخ هذه الامة وفي تراثها الفكري والحضاري والانساني . فهو شاعر لم يعش حالة استلاب لحضارة الغرب ، نتيجة لكثير من عقد الوهم التي تحكمت بفكر عدد من معاصريه وبجانب من ثقافة عصره .. انما عمد الى تعرية عقد التبعية الذهنية والتخلف الاجتماعي والحضاري .. فاذا هو ، ومنذ مطلع حياته الشعرية ، شاعر ذو رؤية شبيهة بضوء يتوهج في الضباب ـ على حد تعبيره ـ .

واذا كان الرفض والثورة هما « التأسيس » لهذا « الاتجاه الحضاري » عند خليل حاوي ، فانه استند بهما ، من بعد ، في طريق تحددت فيه « مسؤولية الشاعر » في عصر أعلى ما فيه مطامح الانسان المتطلع الى قيم جديدة منطلقها هذا الرفض ، وجوهرها الثورة التي تحرق بنارها كل يباس في الواقع ، وكل تخشب في الافكار .

لقد اتخذت ثورة خليل حاوي الحضارية مثل هذا المعنى لنفسها ، وسارت بمثل هذا الامتداد في كونها ثورة احساس بواقع متخلف ينبغي أن ينتهي ، واعلان لبدء عصر حضاري جديد يكون فيه الانسان والفكر هما القيمة العليا . ولم تكن ثورته هذه ثورة خارجية ، كما لم تكن ثورة جزئية .. انما هي ثورة اطلاق للحيوية الكامنة في الانسان العربي ، ولطاقات الابداع المكبوتة في نفسه وذاته . وربما من هنا ما تسرّب الى لغة شعر خليل حاوي من عنف ، وصلابة ، ووخز .. وكأن اللغة عنده هي لغة ذلك الجبلي الذي انحدر الى أرض المدينة وشوارعها المسفلتة ، فتعثر بها ، ورفضها ، لانها برغم ما فيها من انبساط ، فان فيها من الالتواء ما يمكن أن يدخل بالانسان مداخل جديدة ، يتعثر معها بقيمها الرافض لها ، من حيث الاساس ، بحثا عن الحيوية المتجددة في الانسان والواقع . فهو اذا كان قد بدا بالرفض والثورة على واقع متخلف وقيم متهرئة ، واذا

كانت ثورته هذه قد بدأت من « الواقع » باتجاه «الذات» (كمركز للفعل والتغيير ، للرفض والقبول ..) فانه قد عاد بهذا الواقع الى الذات ، ومنها بدأ « حركته الثانية » : الهدم والبناء ، رفض البالي المتهرىء وازالته باحلال الجديد المتطور المنبثق عن ذات تلتقي فيها نزعات الحضارة الجديدة والارث الحضاري العريق . وهذه الحركة هي حركة العصر . ومن هنا لقاء « الداخل » ب « الخارج » عنده .. لقاء ما هو « شخصاني ـ ذاتي » بما هو « عام ـ اجتماعي » ، ليكون البناء الاخير ، والتوجه الاخير نحو : تكوين حضارة العصر العربي الجديد من خلال طاقات الانسان الجديد ، وقد رآه في صورة « السندباد » الذي أبحر ضمن يقين جديد « في عالم ذاته ، يحاول أن يصفيه من رموز الانحطاط ، وأن يعود به الى حال البراءة الاولى التي تجعل السندباد نفسه قد عاد طفلا بريئا صافيا » .

من هنا اختطّ خليل حاوي رموزه ، كما شكّل عناصر لغته واستجمع أصول رؤياه .. ولعل هذا هو ما ميّز شعره عن شعر سواه من الشعراء المجددين ، واكسبه من قوة التعبير وتفرد التجربة ما جعل تأثيره (أو نفوذه الشعري) يتبدى واضحا في شعر كثير من الشعراء ، بينهم بعض من أطلّ علينا من مشارف الخمسينات .

ان يكن هذا مرورا سريعا بأجواء شاعر لتجربته سعتها وشمولها وثراؤها ، فان التوقف معه عند معطيات هذه التجربة ، في اطارها الخاص ، وفي اطار حركة الشعر الجديد ، يجعلنا نتوغل أكثر في أرضه الشعرية ، لنتعرف على أبرز ما لها من سمات ، وما فيها من خصائص ..

● **سرت أول ما سرت مع زملائك الرواد في حركة الشعر العربي الجديد ، مستكشفا ، فابتكرت طريقتك الخاصة التي ميزت شعرك عن شعر زملائك الآخرين ، وافردته بطابعه الحضاري . اليوم ، وبعد حوالي ربع قرن من العمل في هذا الطريق ، ماذا تفعل على صعيد العمل الشعري ؟**

ـ أحاول أن أعبّر عما في المرحلة الحاضرة من تطور السالف الطويل ، وهو تعبير عن تجارب تتصل بالتجارب السابقة ، ولكنها تتخطاها ، كما أعتقد ، من حيث النضج في التجربة ، واليسر في التعبير ، والتلقائية في الرؤية . وقد أنتجت حتى الآن ست قصائد طويلة ، وعددا كبيرا من المقطوعات القصيرة ، التي كانت تصدر صدورا عفويا يعود الى محرض يثير النفس ، كحدث من أحداث لبنان ، أو من حالة نفسية تولدت عن ظروف غير عادية بعد أن غادرت لبنان أيام الحرب ، ما بين بعض أقطار الوطن العربي ، وبلدان أوروبا وأميركا .

هذا ما يمكن أن يقال ، باختصار ، عن طبيعة التجارب التي عبرت عنها في المرحلة الاخيرة التي تمتد من أوائل السبعينات الى اليوم .

● **هذا يعود بنا الى المرحلة الاولى ايضا ، التي تغربت فيها أول مرة ، وكتبت قصائد في الغربة حاولت فيها ان تعيد اكتشاف الذات العربية ، وان ترسم طريقها الجديد في البحث الحضاري عن النفس وعن الذات الضائعة . هناك كان حافز معين قد دفعك في هذا الاتجاه ، أو قل دفع شعرك . أما في المرحلة الاخيرة فكانت هناك دوافع أخرى لهذا التغرب وهذا الرحيل . فهل من وجه للمقارنة بين « الرحلة الاولى » والاكتشاف الاول ـ في تلك الرحلة ـ وبين ما حدث لك في الرحلة الاخيرة هذه ؟**

ـ الحقيقة ان الانسان لا يستطيع أن يعرف مجتمعه وحضارته الا اذا نظر اليهما من جهتين مختلفتين .. ان يعرفهما معرفة صميمة من الداخل ، ولكن المنظار الداخلي وحده لا يكفي ، عليه أن يغترب ويلتفت الى حظ مجتمعه وأمته من الخارج . وهنا تتم له المعرفة الصالحة . وهناك قول : « أود أن أغترب عن بلدي لاعرف بلدي » ، وهذا ما حصل لي في المرحلة الاولى .

أما الاغتراب في المرحلة الاخيرة فهو اغتراب اقسى من الاغتراب الاول ، يكاد يبلغ حد القسوة المطلقة، والشعور بالغربة في الوطن بين الاصدقاء والاهل . وللغربة هنا أسباب عديدة ، منها هذا التطور الذي ينتقل بالشاعر من مرحلة الى مرحلة ، الى أن يبلغ به ذرى من المعرفة الانسانية التي ليس من الضروري أن تكون معرفة ايجابية أو يقينية . قد تكون معرفة انكار المعرفة ، ولكنه على هذه الذروة لا بد من أن يكون وحيدا، سواء أكان في صحبته لمن عرفهم من أصدقاء الصبا ، أو ممن عرفهم فيما بعد .. هناك هذه الذروة التي يتسنمها ، أو التي تعلو من ذاته وتظل وحدها قائمة ، متجمدة في العزلة والصقيع .

في غربة كهذه لا بد من المواصلة والمصاحبة ، وهنا أرى ان أفضل من صحبتهم في المرحلة الاخيرة هم شعراء وأدباء ومفكرون عاشوا عبر مراحل متعددة ، مختلفة من تاريخنا العربي والتاريخ العام . ولكن صحبة الاشباح تبقى باردة ، تفتقر الى حرارة الاتحاد الانساني .. الاتحاد الصميم ، ومن هنا هذا الشعور القاسي بالغربة الذي لا يمكن أن يتبدد .. انها غربة يحملها الانسان في داخله .. انها غربة في داخل الذات وليست في الزمان ولا في المكان .

● **وهل ترى ان هذا الذي قلته عما فعلته في الشعر الآن هو ما ينبغي لك أن تفعله ؟**

ـ أرى ان الشاعر لا يستطيع ان يقرر ما يجب ان

يفعله ، لان القصيدة لا تخضع لتصميم مسبق ، وانما يعرف الشاعر تجربته بعد أن يعانيها ، والمعاناة وحدها ـ كما أعتقد ـ لا تكفي . تظل التجربة غامضة ، مغلقة على ذاتها الى ان تتكشف عن رؤيا تضيء خفاياها .. وعندئذ يدرك الشاعر ما يحمل بذاته ولذاته .

● هل لي أن أسأل هنا عن بوادر مثل هذا الاتجاه الحضاري ، الذي تعمل فيه ضمن محاولة لانتشال الذات العربية من وهدة التردي والتخلف الحضاري ، ووضعها في اطار حضاري جديد يستمد مقوماته واصوله من توجه قومي واضح . هل لنا أن نتتبع الاصول : من بدئها ، وتكوّنها ، حتى تطورها، وتبلورها ؟

ـ الحق ان الجواب عن سؤالك هذا متضمن في أحاديث سابقة صدرت عني ، وأعتقد ان صلة أشبه ما تكون بـ « الاتحاد الصوفي » حصلت بيني وبين ما يمكن أن يدعى « ذاتا عربية » تحاول أن تهدم ماضيها وأن تبدع حاضرا أصيلا ، ومستقبلا أصيلا .

من هنا كان ما أستهدفه لا يحصر في مجال التطور السياسي ، سواء كان ايجابيا أم لم يكن . انه يشتمل على السياسة ، ولكنه لا ينطوي ضمن حدودها .

ما يجب أن يكون هو أن تتولد في الوطن العربي حضارة تضيف اضافات أصيلة أشبه بالاضافات التي صدرت عن الحضارة العربية القديمة ، ولا نكتفي بأن نحدث ضجة تطفو على سطح الوطن العربي ثم تنطفىء بعد حين .. وأعتقد ، أحيانا ، ان الحضارات ، كما قال فاليري ، فانيات ، وليس هناك من حضارة ثابتة راسخة رسوخا أبديا .

وأسائل نفسي : لماذا أسعى لخلق ما سوف ينتهي الى فناء في يوم ما ؟ غير ان السؤال لا يمكن أن يكون عقلانيا منطقيا ، وهو كمن يسأل الأم ، لماذا تحب ابنها ؟! انها تحب من ينمو ويتدرج في النمو الى أن يبلغ الشباب ، وهي تدرك انه سيشيخ يوما ما ، ويهرم ، ويفنى ، ولكنها تحبه ، وترى في حبه مبررا لوجودها أحيانا .

● في « الناي والريح » و « نهر الرماد » كانت هناك نفس تطلق مكنوناتها ، لتدمغ عالما بالادانة ، مستهدفة خلق عالم جديد . هذا العالم كان « بيادر الجوع » ـ كما يبدو لي ـ هو الطريق الذي رسم الكثير من المعالم نحوه ، بعد أن كانت في الديوانين السابقين عملية ارهاص به من خلال « الموت » و « الولادة » . وبقدر ما أوجد شعرك في دواوينك هذه عالما يرتبط به حنين الانسان العربي وتطلعه المستقبلي ، فانه خلق ايضا أسلوبا جديدا في التعبير الشعري ، في سبيل حياة أغنى ، وأعنف ، وقد كان هذا في مرحلة من حياتنا المعاصرة كنت فيها تريد أن تزحزح الباب العتيق للخروج الى حياة أرحب . الآن ، وبعد الكثير من المتغيرات في الواقع العربي ، والكثير من المتغيرات في الحساسية العربية ، وفي الحساسية الشعرية ذاتها ، في تجربة الشاعر .. في نظرتك للواقع .. في التبدلات الجوهرية التي حصلت في الواقع ، ان سلبا أو ايجابا ، كيف تجد اليوم ما كنت تقوله بالامس وتبشر به ؟ هل تجده صالحا لزماننا الراهن ؟ أم ينبغي أن تبدأ من نقطة انطلاق جديدة ، أم انها هي تلك الجذور التي ينبغي ان ننطلق منها نحو الحاضر ؟

ـ هناك تبدل في الاوضاع الخارجية الموضوعية وتبدل في موقفي الذاتي منها . أرى ان تلك الاوضاع تحاول أن يطغى عليها اليوم نوع من السلفية التي تستمد قوتها وسيطرتها من مصادر تكاد تكون ، بجملتها ، غير مشروعة ، انها ، في بعض الاحيان ، استخدام للمال العربي ، والافادة من وسائل الاعلام الغربي في ترسيخ تلك السلفية . وأخشى أن لا تتوفر للبلدان العربية التي تدعي اليوم التقدمية الوسائل الكافية التي توليها القدرة على رد هذا المد السلفي . ولست ممن يتنكرون للتراث، كما يبدو ذلك في شعري ، ولكنني أود أن لا نفيد من التراث الا ما كان عناصر حية تصلح لبناء وطن عربي جديد . ولست أدري كيف يرى بعض المسؤولين في الوطن العربي ان في هذه السلفية الغاشمة الى حد بعيد ، كل الصلاح ، اذا كانوا مخلصين . وقد لاحظت ان هذه النزعة لم تعد تكتفي بالانتشار في مجال الدبلوماسية والسياسة ، وانما انتقلت الى برامج التربية ، حيث لاحظت ان العقل العربي في نتاجه القديم الاصيل لم يعد متمثلا في تلك البرامج تمثلا صالحا ، فقد أسقط من تلك البرامج تراث المعتزلة ، وتراث المفكرين الاصيلين ، وهذا الامر يكاد يبلغ حد الالغاز بالنسبة اليّ . لا أفهم كيف يتنكر بعض العرب اليوم لما كان أصيلا في تراثهم الفكري .

هذه النزعة يمكن أن تنتشر الى مجالات عديدة .. وان يكن مجال الشعر واحدا منها. فاذا أخفقت الحركات الشعرية التجددية في التعبير تعبيرا أصيلا عن واقع الحياة العربية ، فلا بد من تنكر الناس لها والعودة الى سلفية في مجال الشعر .

يصل بي التأمل الطويل أحيانا الى تصور لهذه الحضارة التي ورثناها .. الحضارة العربية القديمة المتكاملة تكاملا تاما ، والتفت الى واقع العرب في العصر الحاضر فأشفق مما أراه من عجز عن انطلاق أصيل يستمد غذاءه من التراث ، ولكنه يأتي بما يتخطاه ، وبما يمكن أن يعدّ اضافة أصيلة الى التراث الحضاري الانساني .

هذا ما حصل عندما انطلقت حركة الانبعاث الالمانية ، فتولد عنها في مجال الفكر والحكمة نتاج

« غوتيه » ، وفي مجال الفلسفة مذهب « كانت » ، وفي مجال الموسيقى نتاج « بيتهوفن » . ان ألمانيا ، بنتاج هؤلاء الثلاثة ، سيطرت على أوروبا ، وبعد أن كانت تابعة للحضارة الاوروبية الوافدة اليها بخاصة من فرنسا . واذا التفتنا الى روسيا ما قبل الثورة الاخيرة، نجد ان الرواية الحديثة بلغت أقصى تطورها على يدي اثنين من الروس هما : تولستوي ودستويفسكي . كانت القصة الروسية قبلهما متخلفة عن القصة في الادب الاوروبي . ولكن هذين الكاتبين لم يقفا عند اتباع ما يتولد في مجال القصة على أيدي القصاصين الاوروبيين ، وانما تخطيا بنتاجهما كل ما عرف في تراث القصة الاوروبية الحديثة .

وهذا ما يجب أن يفعله العرب في المجالات المتعددة، وبخاصة في المجالات التي تفوق فيها العرب من قبل ، وهي مجالات الادب والعلم معا ، وكذلك الفكر الفلسفي الميتافيزيقي .

● انت هنا تطرح قضية على جانب من الاهمية ، تكاد تكون الشغل الشاغل لكثير من المبدعين والباحثين، على السواء ، هي قضية العلاقة بالتراث . انت هنا تطرح العلاقة بالتراث من منطلق فهمك له ، فبقدر ما تحمل من ادانة للسلفية ، فانك تقول بالاضافة والتجديد لروح هذا التراث . فهل لنا أن نتوقف هنا قليلا عند بعض المصطلحات : ماذا تعني بالسلفية ؟ ماذا تعني بالتراث ؟ كيف ننقي التراث من هذا العرق السلفي، لنستصفي الجوانب المضيئة منه ، وكيف نفيد من هذه الجوانب المضيئة في تجربتنا الجديدة لنندفع بقوة أكبر الى المستقبل ؟

ـ الحقيقة ان ما يقال ، عادة ، عن كل حركة انبعاث انها أشبه بعودة من يريد أن يقفز قفزا موفقا . انه يعود الى الوراء خطوتين أو ثلاثا ، ثم يقفز .. فيتخطى القفز في حالة عادية .

لا بد لكل حركة انبعاث تجددي وتقدمي من العودة الى الوراء ، والاخذ بما يعدّ عناصر حية في التراث . كيف نعرف ما هي هذه العناصر الحية ؟ عندما تتوفر لدينا المعايير التي نحكم بها . هناك ما يقال عادة عن العودة الى الاصول والينابيع ، وهذا ضروري في كل حركة انبعاث : العودة الى المصادر التي انطلقت منها الحضارة العربية ، وليس الاخذ بالانماط الجاهزة في تلك الحضارة . مثلا في الشعر ، يجب أن نعود الى الحمية التي تولد عنها الشعر الجاهلي ، وعن ما يشبه الاعجاز البلاغي في القرآن ، وعن هذه الحمية كما عبرت عن نفسها في نتاج شاعر العربية الاكبر : المتنبي ، انها عودة الى الينابيع التي ولدت حضارة في الماضي وليس هي الانماط الجاهزة التي تولدت في تلك الحضارة .

السلفية، هي الاخذ أخذا شكليا خارجيا بصياغات قائمة قياما جاهزا في الماضي ، وهي لا تصلح لمجابهة الصعوبات التي تتحدانا في العصر الحاضر .

أهم ما يجب أن يتصف به الانسان الانبعاثي هو امتلاك طاقة حيوية تصهر ما يستمده من تراثه القديم ، كما تصهر ما يستمده من تراث الحضارة الغربية ، ويحول هذا الصهر كل ما يستمده من المصادر جميعا.. يحوّله عن طبيعته ، فيسقط عنه خصائصه القديمة ويسبغ عليه خصائص جديدة . وأفضل مثل على ذلك ، كما أقول دائما في أحاديثي ، هو الشجرة التي تستمد الغذاء من التراب ، ومن الرطوبة ، ولكنها تحول ما تستمد الى مادة ذاتية تنمو بها وتثمر . الثمرة هي نتاج ما استمدته الشجرة من رطوبة وتربة ، ولكنه يختلف اختلافا جوهريا عن الرطوبة والتربة . وهذا ما يجب أن يحصل في الشعر . ان ما ندعو اليه من انبعاث لا يمكن أن يكون تكرارا لصيغة قائمة في الماضي، ولا تنكرا للماضي ، وانما الاخذ بالحيوية التي ولدت ما ولدت من أنماط أصيلة من قبل .

● ما هو الجذر الذاتي الذي بدا منه خليل حاوي ليضيف هذه الابعاد الجديدة الى ما استمد من وهج تجربة الماضي ؟

ـ أعتقد انني كنت دائما اثق بنفسي ، واثق بالذات العربية أيضا ، وبقدرتي وقدرة الذات العربية على الخلق الاصيل . ولم أنظر الى مبدع في تراثنا أو في التراث الغربي نظرة تابع لمتبوع ، وانما كنت دائما وأبدا أثق بأنني قادر على ابداع ما هو أصيل ومتفرد . وقد قال المستشرق بخمان ، بعد أن أطلع على الشعر الحديث جملة وكلا : ان الشاعر الوحيد الذي لفت نظري في الوطن العربي حتى الآن هو خليل حاوي . وأهم ما ورد في تصريحه : ان خليل حاوي له قدّ وحد ، كما يقول المتنبي ، وهذا أمر عجيب بين شعراء العرب والغرب المعاصرين .

اذن ، أكون أنا بالنسبة لهذا الناقد الموضوعي الذي لا تربطنا به صلة صداقة ولم يكن دافعه دافعا ذاتيا أو منفعيا ، كما يحصل دائما في حال بعض النقاد العرب ، من خلال هذه الشهادة التي تؤكد ان هناك شاعرا معاصرا جاء بما ينفرد به بالنسبة للتراث العربي وللتراث الغربي كذلك .

● أريد هنا أن أتوقف بعض الشيء ، لأتعرف الاسلوب الذي اتبعته في التعامل مع كل هذا التراث ، ومع الواقع ، لتخرج بهذه التجربة التي تنقل الينا عنها مثل هذه الشهادة الشخصية .

ـ الواقع انها قضية هبة ، دون أن نعني بهذه الكلمة الغاء البحث التحليلي للقضية . هناك الحيوية

الكامنة ، أو التي تجمعت خلال عصر الانحطاط في الذات العربية ، وهناك صلتي بهذه الذات ، وما انصبّ من الذات العربية ، أو ما اتحد ، وربما كان نتاجي الشعري حصيلة اتحادي اتحادا لا واعيا بأعماق الذات العربية التي أمدتني بالحيوية التي تصهر ، وتتفجر بمواسم غير مرتقبة .

● هلّ لي ان اسأل هنا عن مصادر ثقافتك ؟

ـ أهم المصادر كما هو بديهي ، التراث العربي ، بكليته ، ولا أستثني من هذا التراث الجانب ، أو العنصر الفكري العلمي . انني درست تراث العرب الفكري وكتبت فيه رسالة مطولة عنوانها : « العقل والايمان بين الغزالي وابن رشد » . ثم درست الفكر الغربي والشعر الغربي ، كما درست الفكر العربي والشعر العربي درسا شاملا متبصرا تبصرا عميقا بدقائق ما يحمل هذان التراثان من مضامين ، ومن صياغات لتلك المضامين . واعتقد ان كلّ شاعر يجب أن يمرّ بمراحل تبصر عميق لا ينتج فيها ، ثم تتجمع لديه خبرة جديدة من التبصر ومن تجارب الحياة الواقعية ، تتجمع وتحتشد في نفسه وتفرض عليه أن يفصح عنها بتعبير شعري . وهذا ما كان يحصلّ . أنا أعرف التراث الشعري الاوروبي بكليته .. ولكن أعود الى ما قلته : الحيوية الصاهرة ، هي التي يسرت لي الغذاء الثقافي الصالح دون أن أصاب بالتخمة ، فما لم تكن لدى الشاعر هذه الطاقة الحيوية فان القليلّ من الثقافة قد يصيبه بالتخمة وعسر الهضم . وهذا ما أصاب بعض الرواد ، وما يصيب الآن بعض الشعراء الذين تلوا جيلّ الرواد .

● اعرف منك الآن انك درست الفلسفة ودرست الفكر الفلسفي العربي ، كما درست الفكر الفلسفي الغربي . ترى على أي نحو كان عملّ الفلسفة في نفس الشاعر ؟

ـ الحقيقة اني لم أدرس الفلسفة من حيث هي معلومات جاهزة ، وانما كنت أرافق الفلاسفة في مغامراتهم عبر الوجود ، وكنت أعدّ نفسي وأنطلق بمغامرة ذاتية ، مغامرة كنت أعاني فيها الوجود بعناصر نفسي من فكر وشعور وخيال ، وعن هذه المعاناة النفسية بكلية عناصر النفس ، كانت تتولد القصيدة التي كنت أحاول أن أجعلها متكاملة قدر الامكان . وقد ارتحت لتصريح الدكتور احسان عباس عندما قال : « ان خليل هو أقدر الرواد على جمع توازن بين الفكر والخيال والشعور . انه طفلي البراءة ، صخري الواقع ، حدسي الرؤيا ، ومن هذه العناصر الثلاثة تتألف قصيدته ثم تنصبّ في بعد ثقافي متفرد » . فهنا يلتقي حكمي على شعري بحكم ناقد متبصر .

● حتى الآن تحدثنا عن علاقتك ، كشاعر ، بالتراث المكتوب ، أو عن تأثير التراث المدوّن على الشاعر فيك . هناك تراث آخر ، هو تراث العائلة ، تراث البيئة الاجتماعية .. فما تأثيره ؟

ـ هذا يعود الى ما قررته مرارا من قبل ، وهو ان على الشاعر أن يعبر عما دعاه فلاسفة الالمان وغيرهم من نقاد الفن بـ « الكلّي العيني » . العيني هو : حسي محدد ، والكلي مطلق ، كما تدل اللفظة ، وهذا ما يجعلُ الشعر يفترق افتراقا تاما عن الفلسفة ، الفلسفة تعبر عن الكلي المجرد ، أما الشعر فيعبر عن الكلي العيني ، ويعني ذلك ان الشاعر ينفذ برؤياه عبر الواقع المحلي الى الواقع القومي الى الواقع الانساني ، وواقع الكون بكليته . ومن هنا ، تجد في شعري ملامح يمكن أن يقال انها مستمدة من تجربتي الخاصة في محل أو موضع خاص من الوطن العربي هو لبنان . ولكني لا أستطيع أن أعين ما كنت أستمده من هذا المحيط بالضبط ، غير ان الذين كتبوا عني أدركوا ذلك ، ولكنهم قالوا ان للقصيدة في شعري أبعادا متعددة ، منها ، كما قلت : البعد المحلي ، البعد القومي العربي ، ثم البعد الحضاري الانساني ، وأحيانا الكوني .

● حين أتأمل ما فعلتموه بالامس ، كشعراء رواد ، أجد ان حركتكم قد بدأت وتنامت وتطورت بنوع من الدينامية الشاملة ، أما اليوم فان عمل الجميع ، في الشعر ، يكاد يعود الى نوع من السكونية ، فليست هناك تلك الفتوحات الشعرية التي ألفناها في تجاربكم كشعراء رواد ، لا تجربة ولا رؤيا ولا تعبيرا . وقطعا لا يمكن ان نعزو قضية كهذه الى مصادفة طارئة ، سواء بالنسبة لكم ، كتأكيد للجانب الايجابي ، أم بالنسبة للكثيرين ممن جاؤوا بعدكم ، كتأكيد للجانب السلبي وتدليلٌ عليه .

ـ لا شك ان الجواب عن هذا السؤال يقتضي الاطلاع على ما أنتجته ولم أنشره حتى الآن . وأعتقد أن المرحلة الاخيرة تختلف عن ، ان لم أقل تتخطى ، ما أنتجته في المراحل السابقة . ولم تكن مرحلة سكونية حتى الآن .

أما بالنسبة لمن جاء بعدنا فلا يمكن أن نرد الآفة الى نقص في مواهبهم وثقافتهم فقط ، وانما الى تحول جذري في طبيعة الحياة العربية التي يغلب عليها الآن ما هو خاص وذاتي على ما هو عام وموضوعي . الاهتمام والاحتفال بالهموم الذاتية الشخصية ، والمتعة الذاتية الشخصية ، وهذا يحصل عندما تخفق الحركات التي تنزع منزعا كليا موضوعيا في تحقيق أهدافها ، وربما كانت حالنا غير بريئة من مصادفة تاريخية سعيدة اننا انطلقنا مع انطلاق حركة الانبعاث العربي ، فكانت أحلامنا كبيرة ، وكان يأسنا مأساويا عميقا ، وكان

تطلعنا كانت كبيرا عظيما . كان هنـــاك مهوى عظيم نعبر عنه ، وفي التعبير عما هو عظيـــم يرتفع مستوى الشعر عما هو عادي ومألوف . أما الآن فليس في تجارب الانسان عبر الوطن العربي ما يرتفع الى مستوى التجارب التي عانيناها نحن الرواد ، وعبرنا عنها .

ومن المؤسف ان احتفال الشعراء من الاجيال التي تلت جيل الرواد بالجزئيات أحيانا ، وبالتوافه أحيانا ، دفعهم الى نتيجة حتمية لهذا المنطلق ، وهو الاستخفاف بما يمكن أن يكون ثقافة ضرورية وجدية للشاعر . انهم غالبـــا ما ينطلقون في نتـــاجهم مما يشبه « المعابثة الذهنية » والتقاط الصور الغريبة والمدهشة على حساب الوحدة العضوية في الشعر . أما الوحدة العضوية في الشعر فلا تتوفر الا اذا كـــان الشعر ينتمي الى منطلق انبعاث حضاري . الوحدة العضوية والبنـــاء العضوي لا يتوفران الا لشعراء ينطلقـــون من مستهل نهضات انبعاثية في التاريخ . ما قبل هذه الحركة الانبعاثية من الممكن أن يكون هناك نوع مـــن الكلاسيكية التي توفق توفيقا صالحا ، أو غير صالح ، بين شكل ومضمون .. بين لفظ ومعنى . وبعد مرحلة الانبعاث قد تأتي مراحل يتصف فيها الفكر والشعر معا بالنظر الى الوجود نظرا يتكشف عن فوضى مطلقة ويعبر عـــن فوضى مطلقة . وربما عبّر الشعر عن فوضى مطلقة دون أن ينظر فـــي الوجود ، انها « معابثة » يقصدونها لذاتها، أو ينسخونها عن أنماط غربية صادرة عن المـــذهب السريالي ، وهو مذهب يعبر عن مظهر من مظاهر الانحطاط في حضـــارة تعبر من مرحلة التكامل الى مرحلة الانحلال .

● في ضوء هذا الحكم الذي تقول به .. هـــل بامكاننا أن نطرح السؤال حول مستقبل حركة الشعـــر الجديـــد ؟

ـ القضية ، عندما نقـــول : « شعر » ، يجب أن ندرك ادراكا يقينيا صرفا انه ليست هناك قضايا شعرية تنبت في مجال الشعر وتظل قائمة ضمن نطاقه . انهـــا قضية حضارية يكون الشعر مظهرا ، أو تعبيرا مـــن تعبيرات عدة عنها ، والقضية هي قضيـــة مستقبل الحضارة العربية اليوم : هل سوف يكـــون مستقبل حضارة متطورة تطورا تجدديا أصيلا ، أم انـــه سيكون مستقبل حضارة تكرر نفسهـــا وتجترّ ذاتها بتكاسل وتراخ لأنها تفتقر الى الحيوية التي تولد ما هو أصيل في مجالات الشعر وغيره من مجالات الحضارة . انهـــا قضية حضارة وليست قضية مظهر من مظاهر الحضارة هو الشعر .

● هنا نستطيع القول : ان أفضل التجديد فـــي الشعر العربي هو ما كان مرتبطا برؤية ثوريـــة للواقع ، وممتدا بجذوره في اعماق الماضي ، ومتطلعا برؤياه الى المستقبـــل ..

ـ هذا صحيح جدا ، ولكن لا يمكـــن أن يفرض الشعر نفسه رؤية ثورية تتصل بما عبرت عنه ، وانما الرؤية الثورية يفرضها واقع الحضارة علـــى الشاعر ، والشعر ، عندما تنحلّ في الحضارة الرؤية المتكاملة في المجالات المختلفة ، لا بد لها من أن تنحلّ في الشعر . وأهم ما تفتقر اليه الحضارة اليـــوم هو الفكر الفلسفي الاصيل . لا يمكن لحركة انبعاث ثوري أن تقوم بذاتهـــا ولذاتها .. يجب أن تستند الى مذهب فلسفي يسبقها ويمهد لها ، منه تتفرع النظريات على مجالات الحضارة، وهذا ما لم يحصل حتى الآن . ان الفكر الفلسفي ما يزال مشوها مموها ضائعا بين عالمين : عـــالم الفكر العربي القديم ، وعالم الفكر الجديد الوافد الينا مـــن الغرب . ليس في الوطن العربي فيلسوف يمكـــن أن نعدّ نتاجـــه نتاجا صالحا ليكون أساسا فلسفيا شموليا كليا لانبعاث شمولي كلي .

● كيف عبّرت عن هذه الازمان الثلاثة : الارتباط برؤية ثورية للواقع .. الامتداد بجذور هذه الرؤية في اعماق الماضي ، والتطلـــع بهذه الرؤية في آفـــاق المستقبـــل ؟

ـ الحقيقة ، أنا لا أرغب كثيرا في تحليل الاسس النفسية للابداع الشعري ، فمن الممكن ، اذا ما لجأنا الى ذلك ، أن نأتي بتعليلات متعددة ، مختلفة ، متناقضـــة لظاهرة واحدة ، وتكون هذه التعليلات على مستوى واحد من حيث القبول أو عدم القبول . واعيد واكرر ان الرؤيا ليست من صنع الشاعر بفعل ارادي . ان ما يهجع في ضمير أمته وفي ضمير الانسانية وينسكب في أعمـــاق ضميره اللاواعي يظل مختزنا هناك الى أن ينضج وتنبثق عنه رؤيا توضحه للشاعر نفسه ، كما توضحه في ابعاد الآخرين . ان الشاعر لا يعرف ما يحمل الا بعد أن يعبر. عندما يعبر يعود الى ما عبّر فيكتشف ذاته وذات أمته ، وربما كشف ذات الانسان وطبيعـــة الوجود . ولهـــذا لا يمكن أن يعرف الشاعر كيف تلتقي هذه الابعاد الثلاثة في نفسه .. انها تكون هناك ، وتتجسد في القصيدة ، ولكنه لا يصمم لها . ان القصيـــدة لا تبدأ بتصميـــم مسبق ، كما يفعل أحيانا ، مثلا ، أصحاب المناهج العلمية في مجالات اختصاصهم . وهذا ما يتفرد به الشعر . وهنا الصعوبة والخطورة والفجيعة في الشعر ، هو ان الشاعر يقع دائما تحت رحمـــة ما يفتح عليـــه ، وقد لا يفتح أحيانا .. لا أقول الهاما ، انما أفضل عليهـــا تعبير : « يفتح عليه » ، وهذا ما رفضه شاعر كبير مثل « بول فاليري » وحاول ، قدر المستطاع ، أن ينفي عن الشعر عامل الطبع والالهام ، وأن يؤكد عـــلى العامل الارادي في تجربة الخلق الشعري .

ولكني عندما أعـــود الى شعري أرى ان أفضل ما فيه هو ما صدر صدورا تلقائيا شارك فيـــه اللاوعي

الوعي ، وكان للفعل الارادي نصيبه من النشاط ، ولكنه لم يستقلّ بعملية الخلق الشعري اطلاقا .

● دعنا ننتقل الى قضية أخرى تتعلق بشعرك .. هي ما قدمت به لبعض قصائدك من مقدمات نثرية ـ تفسيرية ، كنت تشرح فيها فكرتك الاساسية في القصيدة ، بدءا من الرموز ومدلولاتها ، وانتهاء بالتجربة ذاتها . وقد تساءل كثيرون قبلي عن غايتك من ذلك ؟

ـ أولا ، أريد أن أصحح مفهوما ورد في كلامك ، وهو : « الفكرة في القصيدة » . ليس في القصيدة فكرة ، انها تصدر عن تجربة ورؤيا . ان الرؤيا هي التي تضيء التجربة وتنقلها الى التعبير . ولم تكن هذه المقدمات سوى تنازل من جانبي لصالح القارىء الذي لم اكن أثق بثقافته وذوقه لانه لم تتوفر له الثقافة الصالحة التي يمكن أن تجعل ذوقه الفني ذوقا مرهفا يتلمح الخفايا والدقائق في صياغته ومضامينه . انها قضية تنازل ، لا أكثر ولا أقل .. وربما كانت تنطوي على ما يشبه الفكاهة ، أحيانا ، أو سخرية .

● ولكن ، الا تجد انك كنت بذلك قد قطعت على قارئك سبيل تأويل التجربة كما يتلقاها ، وأغلقت أمامه باب التأويل ... وهي مسألة تحدّ من آفاق القصيدة ومن أبعادها ، خصوصا ومن بين النقاد من يرى ان شعرك يتخطى حدود تأويلاتك له ؟

ـ الحقيقة اني أعلنت وصرحت مرارا : ان رأي الشاعر في قصيدته هو رأي من آراء ، وليس له أي فضل على آراء الآخرين اطلاقا . وهذا ما قلته ، ولكني كنت في مقدماتي أحاول أن أشير اشارة ايحائية الى ما يمكن أن يعدّ « مفاتيح القصيدة » دون أن أعين طبيعة المضمون ، أو طبيعة الصياغة ، لان ما كنت آتي به لا ادعي انه كان جديدا كل الجدة وأصيلا كل الاصالة، ولكن العصر الحاضر يمنع الانسان العادي من أن يتوفر على الثقافة الفنية اجمالا توفرا اشبه بما كان يقوم به العرب القدماء . فقد عرف عن العرب القدماء ان متذوقي الشعر فيهم كانوا أصحاب ثقافة ، وهذا ما قاله « ابن سلام الجمحي » : « ان للفنون جميعا ثقافات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الاذن ، ومنها ما تثقفه اليد » . والشعر له ثقافة. وكان هناك أصحاب ثقافة ، وكان حكمهم فوق الآخرين . وهذا ما تفتقده اليوم حتى بين المثقفين ثقافة جامعية ، أحيانا ، لان الفنون لا تحظى بما يجب من اهتمام المؤسسات الثقافية في العصر الحاضر .

صدر حديثا :

الدمور في اليوم العاشر

قصص بقلم

زكريا تامر

بدا زكريا تامر حياته حدّادا شرسا في معمل . وعندما انطلق من حي « البحصة » في دمشق بلفافته وسعاله المعهودين ليصبح كاتبا ، لم يتخلّ عن مهنته الاصلية ، بل بقي حدادا وشرسا في وطن من الفخار. لم يترك فيه شيئا قائما الا وحطمه . ولم يقف في وجهه سوى القبور والسجون لانها بحماية جيدة .

وعندما يأتي القارىء الى نهاية هذا الكتاب العجيب ، يشعر بأنه محاصر كالقلم في المبراة . وانه عار من كل شيء في أقسى صقيع عرفه القدر . ولا يملك شيئا سوى راحتيه ، يستر بهما وسطه . وهو في وقفته الضالة والمخجلة تلك على رصيف المائة مليون أو أشبه ، لا ينقصه الا اطار في قاعة محاضرات ، وبحاثة في علم « بقاء الانواع » يشير اليه بطرف عصاه أمام طلابه ويقول : كنا ندرّس يا أولادي من قبل كيف يتطور المخلوق البشري في مناطق كثيرة من قرد الى انسان . والآن سندرس كيف يتطور المخلوق البشري في هذه المنطقة من انسان الى قرد . وأهله وحكامه يتفرجون عليه من النافذة وهم يضحكون .

« محمد الماغوط »

منشورات دار الآداب